ISSN: 2253-0347
مجلــة علوم الإنسان والمجتمع
Journal of Human and Society sciences
EISSN: 2602-781X
المجلد: 12 / العدد: 02 / السنة: 2023 / ص ص: 37 - 58

البناء الاجتماعي للقبيلة ودورها السياسي في العراق

The social structure of the tribe and its political role in Iraq

تاريخ الإرسال: 2022/12/ 21 تاريخ القبول: 2023/03/ 20 تاريخ النشر: 2023/06/20

حسن، عدنان مرعي [1] عبد الوهاب جودة الحايس [2]

[1] جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، *Email : adnanalmerie71@gmail.com*

[2] جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، *Email : abdelwahab.gouda@art.asu.edu.eg*

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى الوقوف على ملامح البناء القبلي وطبيعته الاجتماعية في المجتمع العربي عموما، والمجتمع العراقي خصوصا. وقد اعتمد الباحث على منهجية إعادة التحليل للبيانات الثانوية في تحقيق الهدف، مستخدما طريقة تحليل المضمون للكتابات التي أجريت حول القبيلة، والبناء الاجتماعي للقبيلة العربية. وقد ناقش المقال: التأصيل النظري لمفهوم القبيلة، والوقوف على أبعاده ومؤشراته، والكشف عن مكونات البناء القبلي، وتحولاته في المجتمع العراقي، والوقوف على أنماط التعصب القبلي في العراق، علاوة على دور القبيلة في الحركة السياسية

الكلمات المفتاحية: القبيلة؛ البناء القبلي؛ العصبية؛ التعصب القبلي.

المؤلف المرسل: عبد الوهاب جودة الحايس، *Email : abdelwahab.gouda@art.asu.edu.eg*

Abstract:

This article aims to identify the features of tribal construction and its social nature in Arab society in general, and Iraqi society in particular. The researcher relied on the methodology of re-analyzing the secondary data in achieving the goal, using the method of content analysis of the writings that were made about the tribe, and the social structure of the Arab tribe. The article discussed: the theoretical rooting of the concept of the tribe, standing on its dimensions and indicators, revealing the components of the tribal structure, and its transformations in Iraqi society, and examining the patterns of tribal intolerance in Iraq, in addition to the role of the tribe in the political movement.

Keywords*: tribe; tribal construction; nervousness; tribal fanaticism.*

مقدمة:

تعد القبيلة أحد الأنساق الفرعية المشكلة للبناء الاجتماعي في مختلف مجتمعات العالم وفي المجتمعات العربية على وجه الخصوص، كما أنها أحد المقومات الرئيسية في تحديد هويتها وشخصيتها التاريخية والثقافية، كما تمثل إحدى الأركان التي تتحدد بها مستوى العلاقات الاجتماعية، فضلاً عن أدائها السياسي والثقافي، نظرا لما تمثله من وزن حضارى واجتماعي. إن التطرق إلى البناء القبلي غير قاصر على الدراسات والبحوث فقط؛ لارتباطه المباشر بالحياة المجتمعية في ظل الأحداث السياسية المتصلة بحياة الناس، خصوصًا أن هذه القبائل تشكل خطراً وحماية في نفس الوقت (الشيخ، 2010، ص 5).

غالبًا ما يُستخدم مصطلحان للإشارة إلى القبيلة، ويعد استخدام مصطلح العشيرة أكثر شيوعًا في العراق، وهو يحيل إلى مجموعة من الأفراد والجماعات التي تتحدث اللغة نفسها، وحتى اللهجة نفسها في كثير من الأحيان. وتعد القبيلة من أهم السمات التي تتميز بها البنية الاجتماعية لدول الخليج العربي، خاصة والدول العربية بشكل عام، حيث إنها اللبنة الأولى لنشأة المجتمعات المدنية المعاصرة. وقد أدت القبيلة دوا رً سياسياً مهماً عبر الزمن في إنشاء وبناء وتأسيس الدول والمجتمعات لما تتميز به من عدد أفراد وقوة عتاد تمكنها من دعم أو ردع النظم السياسية القائمة آن ذاك، لذلك استطاعت القبيلة الحصول على دور ونفوذ سياسي كبير ومشاركة فعالة في صنع القرار السياسي وإدارة شئون الدولة والتأثير على التوجهات والسياسات التي تتبناها تلك الدول.

على الرغم من تقدم المجتمعات العربية وتطورها ثقافيًا واجتماعيًا من خلال السعي للحصول على أكبر قدر من التعليم، والتقليل من نسب الأمية، وعلى الرغم من طرق العيش المتحضرة التي تتبناها المجتمعات العربية في وقتنا المعاصر وسيطرة الحياة المدنية ومبادئ سيادة القانون والدولة والمجتمع الواحد، إلا أنه حتى الآن لم تستطع الشعوب العربية بشكل عام، والخليجية بشكل خاص القضاء على تأثير الانتماءات القبلية والعنصرية والطائفية والطبقية (البغيلي، 2011: 2). ويلاحظ بالفعل أن ما يطرح على القبيلة والحياة العراقية خاصة والعربية عامة، يحيطها العصبية في مدى التمسك بالأهل والعشيرة والقدسية القبلية ان جاز التعبير. وقد أشار محمد عابد الجابري، أنه لا يمكن قيام نهضة بعقل غير ناهص، عقل لم يرجع مفاهيمه وآلياته وتصوراته، ولم يخضعها للنقد، ونقد النقد، ووصل الحاضر بنفس البنية التى تشكل بها في الماضي (الجابري، 2005: 51).

أولا: مفهوم القبيلة

القبيلة لغة: القبيلة في معجم المعاني الجامع وقاموس المعاني : جماعة من الناس تنتسب إلى أب واحد. أما المعنى الاصطلاحي للقبيلة .كما عرفها المعجم الرائد: كيان

اجتماعي اقتصادي سياسي يضم عائلات تجمع بينها روابط القربى وتخضع لرئيس واحد، وقد عرف نظام القبيلة عند بعض الشعوب قديمًا، وبخاصة بين البدو (الرائد، 1992: 433). والقبيلة في "لسان العرب" كيان اجتماعي يضم مجموعة من الأفراد تجمعهم إما روابط النسب والقرابة أو التحالفات القديمة. عن طريق الانتماء بأنه كل من ارتبط بقبيلة ما ويعد فردًا من أفرادها، أي أنه ذاك الفرد المنتمي للقبيلة؛ فالانتماء لغةً تعنى الانتساب، يقال : انتمى فلانٌ إلى فلان إذا ارتفع إليه في النسب (ابن منظور، 199: 342).

وعلى ذلك، فالقبيلة هي جماعة من الناس الذين ينتمون إلى نسب واحد أو جد أعلى أو إسم حلف قبلي بمثابة الجد الأعلى. وتتكون القبيلة الواحدة من عدة عشائر وبطون، وقد اشترط علماء الاجتماع في تأسيس القبيلة شرطين أسياسين؛ وهما: الاستقرار في بقعة جغرافية محددة، ووجود عاطفة تجمع أفراد القبيلة على مبادئ محددة، وأفراد القبيلة عادةً يتحدثون لهجة مميزة خاصة بهم، ويؤمنون بثقافة متجانسة ضد الميحط الخارجي. وتنقسم القبيلة إلى مجموعات فرعية متعددة، وهي: الأفخاذ(العشائر)، أو (الحَمولات) المنقسمة إلى مجموعة كبيرة من المتكونة بدورها من مجموعة من (الحمايل) بيت - أسرة ممتدة، وكل بيت يشمل البيوت.

وتُعرَفُ القبيلة في العالم العربي الإسلامي – مع بعض الاستثناءات النادرة - بالعودة إلى نسب أبوي بعيد، هو في الغالب مؤكد أكثر منه واقعي (داوود، 2016: 100). والقبلية أكبر وحدة قرابية في المجتمع العربي، تقوم على انتساب عدد من العشائر إلى سلف واحد مشترك هو الجد الأعلى، وغالبا ما يكون افتراضيا وتنسب حوله الأساطير، وهذا الاعتراف بالانتماء إلى سلف واحد يجعل العشائر تحافظ على ولاء أسمى للقبيلة حتى ولو أنها تتمتع بالاستقلال نسبي في أمورها الحياتية وقراراتها. وتوفر القبيلة إطارا لهوية مشتركة ترتب حقوقا والتزامات على الأفراد المشتركين فيها. وقد انتقد "جاك بيرك" هذا التعريف بقوله: "أن القبيلة لا تنمو فقط عن طريق الاندماج (أي علاقات النسب)، بل كذلك عن طريق التجميع الذي يقع بسبب تنقلات الغزاة أو تيهان الهاربين، حركات

التوسع والانكماش التي يعرفها الاقتصاد الرعوي وتكاثر واختلاط المجموعات". وأعطى "فيليب خوري" وصفا دقيقا لبنيات القبيلة وركائزها عندما يصفها بأنها"نظام، وهي الأصل في المجتمع البدوي، فكل خيمة تمثل أسرة، والمعسكر المكون من عدة خيام يسمى حيا، وأعضاء الحي الواحد يسمون قوما، ومجموعة الأقوام القريبة النسب يكونون قبيلة، يخضعون لرئيس واحد هو أسن أعضاء القوم، يتداعون إلى الحرب بصوت واحد، ويضيفون كلمة بني إلى الاسم الذي يجمعهم، ويتكلمون لغة واحدة، وينتمون إلى أصل مشترك، كما يشتركون في ملكية منطقة من لأرض (الفوال، 1974: 207).

ورغم أن هذا التعريف يسقط على القبائل المترحلة التي لا تملك أرضا إلا أنه من خلال عناصر التعريف نستخلص أن القبيلة هي مجتمع حقيقي واقعي يملك ويستغل أرضا أو قطعة من الطبيعة، يدعي ملكيتها بالغزو أو الوراثة، وأن القبيلة مستعدة للدفاع عن أرضها ولو بالقوة، وهذا ما يميزها عن مصطلح متشابه لها وهو الإثنية ETHNIE التي هي جماعة اجتماعية تشترك في اللغة والعادات والأصل، ويعيش أعضاؤها في مجتمعات متفرقة، عكس القبيلة التي هي مجتمع حقيقي يشترك أفرادها في السيطرة على غطاء مكاني ويشتركون في استغلال خيراته"، فالإثنية اقتسام مشترك للحقائق الثقافية دون امتلاك الأرض، حيث تعطي الاثنية لأعضائها هوية ثقافية ولا تعطيهم أرضا ولا خبزا ولا امرأة والتي فقط القبيلة تمدك بها (godelier, 2004 : 292).

ثانيا: البناء القبلي

ويقصد بالبناء القبلي: المجتمع القائم على القوانين والأعراف التي تضمن للقبيلة بقاؤها، ولذلك نشأة- بينهم العصبية، وكانت هذه العصبية على طبقات تناسب الجماعة التي ينتسب إليها أحدهم، فهو في قبيلته يتعصب لأسرته على سائر الأسر، ويتعصب

للقبائل التي يجمعها مع قبيلته أب واحد قريب على القبائل التي يجمعها مع قبيلته أب بعيد، والى جانب رابطة الدم، وروابط أخرى كالولاء والجوار والتحالف والمصاهرة، وكلُّها داعيةٌ إلى ضروب من التَّعصب متفاوتة القوة، وتقتضي هذه العصبيَّة أموراً تدلُّ عليها أمثالهم وأشعارهم، ومنها أن يكون هم القبيلة والدفاع عنها مقدماً على ما سواه من الهموم الخاصة، ولاسيما إذا كان الرجل سيداً في قبيلته.

ينظر علماء الاجتماع إلى القبيلة باعتبارها بنية اجتماعية وليس كنظام اجتماعي (الطيبي، 2002: 223). وقد رتب العلماء أنساب قبائل العرب ترتيبا تنازليا حيث قسم النويري في مؤلفه "نهاية الأرب في فنون الأدب" أنساب العرب إلى ستة طبقات هي:

1- **الشعب**: وسمي كذلك لأن القبائل تتشعب منه وهو النسب الأبعد ومثاله عند العرب عدنان وقحطان وهما أصل العرب، حيث قحطان أصل عرب جنوب الجزيرة. بينما عدنان أصل عرب الشمال.

2- **القبيلة**: سميت كذلك لتقابل الأنساب فيها بعضها ببعض، واستوائها في العدد ومثالها ربيعة ومضر. ويدل المصطلح أيضا على اتحاد أو كنفدرالية قبلية.

3- **العمارة**: هي ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة.

4- **البطن**: هو ما انقسم فيه أقسام العمارة، كبني عبد مناف، وبني مخزوم وبني أمية، ترجم البعض البطن بالنصف La moitie، (محجوب، 1985: 193) فعند "لوي" هي أنصاف قبائل، فحينما ينقسم المجتمع إلى جماعتين يكون كل شخص عضوا بالضرورة في إحداهما وينتج عن هذه القسمة تمايز الجماعتين، وقد ترجمها الآخرون بـ Lignage السلالة الذي أعطوه في نفس الوقت للبدنة أو Clan، كما يعني البطن عند جماعات

عربية وعبرية أخرى الرحم UTERUS، لذلك يرى "سميث روبرتسون" أن هذه الجماعات ذات نسب أمومي يسبق النسب الأبوي (Dawod, 2004 : 240).

5- **الفخذ**: phratry هو ما انقسم فيه البطن كبني هاشم، أو هو اتحاد عشائر تربط بينهما روابط القرابة حسب ميردوك أو مصالح مشتركة حسب لوي، رابطة القرابة في الفخذ تمتد إلى 4 أو 5 أجيال تربط أولاد العم بنسب أبوي إلى حد مشترك: يختلف هذا المصطلح حسب المناطق، ففي العراق مثلا يطلق عليه بديدة جمع بداید أو فندة جمع فِند حسبما ذكره المؤرّخ العراقي عباس العزاوي (Dawod, 2004 : 240).

6-**الفصيلة**: هي ما انقسم فيه أقسام الفخذ كبني العباس وبني طالب، إذا جمعنا البنيات السابقة نصل إلى أن "الشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ يجمع الفصائل والفصيل يجمع الرهطّ (لبيض، 200: 48-49).

وأضاف آخرون إلى هذا التصنيف: **البدنة أو الحمولة**: هي اتحاد عدة أسر تربط بينهما رابطة الدم، عادة ما يكون نسبا أحاديا مباشرا، غالبا ما يتوزع أفراد الحمولة الواحدة على عدد من الأحياء والمدن، ومع ذلك يحافظون على روابط اجتماعية وسياسية واقتصادية رغم التغير في مضمونها وعمقها، ورغم قوة هذه الرابطة، إلا أنها تنطوي على مقومات انقسامها: ويحدث ذلك أثناء تنافس فرعين أو أكثر من فروعها ينتهيان في نسبهما إلى شقيقين ينحدران مباشرة من الجد الأكبر. وبمرور الوقت وتعاقب الأجيال قد ينسى أعضاؤها الخط القرابي الذي يربطهم بمؤسسها فتستبدل الفروع الجديدة في بعض المجتمعات الجدة الكبرى التي نسوها بجدة مفترضة. وتشير لغة الحمولة إلى التعاون المتبادل بين نفس أعضاء هذه الجماعة فهي من فعل حمل فهم يحملون بعضهم البعض في السراء والضراء.

العشيرة: تتجاوز الحمولة من حيث الحجم فتضم عددا كبيرا من الأسر النووية والممتدة والحمايل التي تنتهي إلى سلف واحد، تقوم عادة على النسب الأحادي Unilatéral والإقامة الموحدة واللغة المشتركة وهذا الاعتقاد جعلهم يعقدون التزامات متبادلة وعلاقات عاطفية وثيقة بين أعضائها بحيث تصبح العشيرة شخصا معنويا وحيدا (تولرجان، 2004: 93)، فلا يستطيع الفرد تمييز نفسه وأرضه عنها والتي يضعها تحت تصرف العشيرة وهي في نفس الوقت مسؤولة عنه وهذا التضامن والتماسك أعطى لها الاستمرار والاستقرار.

إذا كانت العشيرة مجموعة قرابية يسودها عادة نظام الزواج الداخلي إلا أن هناك مجموعات عشائرية تقوم على نظام الزواج الخارجي Exogamie بحيث لا يتزوج الرجل من نساء عشيرته لاعتقاده أنهن أخواته، وهذا ما جعل علاقة الزواج تربط العشيرة بعلاقات خارجية مع البدنات والعشائر الأخرى، فتوسعت شبكتها وانقسمت بدورها إلى فروع. إن العشيرة كشخص معنوي تقوم بعدة وظائف كالتضامن الاجتماعي حيث يسارع أفراد العشيرة إلى مساعدة العضو الذي يحتاج للعون، وهذا الأمر يجعل أعضاؤها يشعرون بالأمن والاستقرار؛ لأن هناك ظهرا يسندهم ومعالم يلجأ لها الفرد للاحتماء من الضياع. ومن بعض مظاهر هذا التضامن: اجتماعهم لجمع مهور العروس، أو تجهيز جنازة، نظام الثأر أو المسؤولية الجماعية، تنظيم الزواج، تنظيم النشاط الاقتصادي للعشيرة فوق الأرض التي تملكها، المشاركة في النشاط السياسي عبر مجلس القبيلة (وصفي، 1981: 113).

وعلى ذلك، **فالعشيرة** ليست فقط خطابا إيديولوجيا أساسه التضامن والتمايز فقط، بل هي نمط تنظيم، ورغم أن علماء الأنساب يتفقون في معظمهم على هذا الترتيب الهرمي للبنيات الاجتماعية في الوطن العربي، إلا أن حركة هجرة القبائل سواء أكانت طوعا أم كرها، إضافة إلى التغيرات التي طرأت على بنى القرابة جعلت هذا الترتيب غير مستقر، فقد ذابت بطون وأفخاذ، وقلما استخدمت مصطلحات العمارة

والفصيلة، وصارت العشيرة هي المصطلح الشائع الذي قد يغطي معنى القبيلة في أحيان كثيرة، وهنا ما أكده"بيرك" عندما قال أن القبيلة لا تنمو فقط بالاندماج بل بالتجميع كما رأينا سلفا.

وعلى العموم فإن انتماء هذه المجموعات إلى نسب مشترك حقيقيا كان أم متخيلا يميزها عن المجموعات الأخرى، إضافة إلى دوافع أخرى ذات مضامين اقتصادية وسياسية حول علاقاتها إلى علاقات تنافس وصراع في أحيان كثيرة يحكمها مفعول القبيلة المتجسد في مقولة: "أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب (الجابري، 1990: 79). هذا التصور لعلاقات القبائل فيما بينها القائم على حب السيطرة على مصادر الثروة والبحث عن ظروف أحسن للحياة جعل القبائل عبارة عن جيوش على أهبة الاستعداد للقتال في غياب الوازع الذي هو جهاز الحكومة الذي يضبط النزاعات وينظم توزيع الثروة، فهي جهاز توازن بين حاجة الناس للاجتماع ورغباتهم العدوانية، لذلك يربط الأنثروبولوجيون البريطانيون مفهوم القبيلة بالمجتمعات السابقة على ظهور الدولة ،أو الفاقدة لها حسب المقاربة الوظيفية التي اعتبرتها مجتمعات بربرية. وعلى هذا الأساس نظر مورجان(1877م) إلى القبيلة على أنها تنظيم سياسي لمجتمعات موجودة في حقبة معينة من تطور البشرية –بربرية- بل ذهب إلى أن تدبير الحياة المجتمعية لم يكن دائما من فعل الدولة، كما نظرا كل من" أ.شابيرا 1956"، و "وجلوكمان 1965م" إلى القبيلة على أنها التصرفات الجماعية السائدة في تلك المجتمعات المتناقضة مع قيام الدولة الحديثة أو بين مجتمعات حافظت على النظام الاجتماعي دون وجود سلطة مركزية. ((وصفي، 1981: 718).

ويتميز المجتمع القبلي بانغلاق وحداته على نفسها، فلا توجد اتصالات منظمة بالأجانب ولا هجرات إلا في الظروف المناخية الصعبة، كما أن انعزال أفراد القبيلة في البوادي والصحراء جعلهم هم أنفسهم بدون تغيير؛ مما ولد لديهم شعورا لا سبيل إلى زعزعته بأن الأرض التي تكسب منها القبيلة عيشها هي أرضها مادامت تقيم فيها وكل محاولة من جانب أي غريب تعتبر عدوانا صريحا يجب دفعه، واعتبرت بالتالي ملكية

المراعي والآبار والواحات ملكا جماعيا وسمح للأفراد بتملك الحيوانات والمقتنيات الخاصة. لكن هذه الملكية الجماعية للأرض بالنسبة للقبيلة قد لا تنفعها في أحيان كثيرة حينما تكون الأرض جدباء، وتقل ظروف الحياة المناسبة للبشر والبهائم، مما يضطرها للتنقل لأماكن أخرى تابعة بنفس المنطق لقبائل أخرى أو للدولة المركزية. وهنا يتحتم على القبيلة إما الصدام وإما اللجوء لوسائل سلمية أخرى حفاظا على كيانها.لذلك، تظل القبيلة في بحث مستمر عن تحالفات تشبه حاليا معاهدات الصداقة، وحسن الجوار والتعايش السلمي، وتبرم مع القبائل المنافسة التي هي بدورها أرزاقها في رماحها كما تبرم مع الدولة المركزية التي تتعامل معها من خلال التجنيد أو الجباية، وهذه القدرة على تأسيس هذه التحالفات تضمن للقبيلة الأمن والاستقرار وتتحدد من خلال هوية القبيلة التي تبدأ بعد ذلك في توسيع حجمها ونفوذها(المنجي: 57).

وتولد ما هو معروف في نظام القبيلة السياسي بأن يكون لكل مجموعة أو تجمع أو كيان اجتماعي من أهل البادية رئيس يسمّى **الأمير أو الشيخ**، وهناك في العائلات السياسية لمشيخة القبائل تدرج هرمي مبني على حجم المجموعات التي تختلف من بدنة إلى عشيرة ومن ثم إلى قبيل. ويجري اختيار الشيوخ ضمن دائرة العائلة الواحدة، وغالبًا ما يتم التوريث السياسي القبلي فتنتقل به المشيخة، مثلً من جيل إلى جيل. ويتم اختيار شيخ القبيلة بتوافق الآراء وبعد عملية تشاورية، وليس لاعتبارات سياسية تتعلق بالأداء السياسي. فهناك مجلس تقليدي أشبه ما يكون بمجلس للحكم، تمارَس فيه الجوانب السياسية الخاصة بالقبيلة، وإدارة شؤونها العامة، وشيخ القبيلة يكون في الغالب كبير السن، وممن يحظون بمكانة اجتماعية عالية عند أفراد القبيلة، وترجع إليه كلمة الفصل في جميع الأمور الخاصة بالقبيلة (Keohane, 1994).

وهناك من يصف هذه البنية بأنها ديمقراطية، فلا وجود للسلطة الاستبدادية، ولا استعباد للآخر في ظل هذا النظام؛ إذ تصدر القرارات وفقًا لسلسلة هرمية سياسية من

المجالس القبلية، تبدأ من قاعدتها، وهي مجالس الأسر والعائات والبدنات، وتتحرك صعودًا إلى مستوى العشيرة، والعشائر الفرعية ثم إلى مجلس رئاسة القبيلة الأعلى . وللجميع حرية إبداء الرأي بما يرعى أو يحقق مصالح القبيلة .وتتخذ القرارات في النهاية بناء على أوجه النظر التي يطرحها الجميع، ومن يمثلون أبناء القبيلة، وبالتحديد من كبار السن، ومن يُتوسَّم فيهم رجاحة العقل من صغار السن. ويُعتبر هذا النظام مولّدًا لأهم التصورات السياسية التي ترسخت في ثقافة القبيلة؛ تلك التي تعطي الشرعية للمجلس القبلي حق التمثيل والتصرف وإدارة شؤون القبيلة، في ما يتعلق بالأرض والانتماء إليها، لم تكن فكرة السيادة على الأرض موجودة، ولم تكن أيضًا تشكل أهمية بالنسبة إلى القبائل التي كان معظمها يعتمد على الترحل والانتقال من مكان إلى آخر؛ فاستمرار الولاء للقبيلة أو نقضه أو تحالف القبائل هو الذي يحدد الارتباط بالأرض من عدمه (Hitti, 1970).

ثالثا: تحولات البناء القبلي في المجتمع العراقي:

تعد القبيلة العنصر الأكثر تداخلاً في المجتمعات العربية، فهي التي تعطي للمجتمع العربي الخاصية المعروفة والسمة المميزة له، مثلما تعطي اليوم الطبقة في أنصع تجلياتها التاريخية سمة المجتمع الأوروبي، ولما فتح الإسلام بلاد الرافدين كان هنالك العديد من القبائل العربية العريقة مستقرة فيها، وزيد عليها بفعل توسع رقعة الفتوحات استيطان العديد من القبائل حيث ساهمت الدولة في إقطاعهم الأراضي. ويعد العراق أكثر البلاد العربية التي جمع ضمن حدوده المعروفة قبائل كثيرة ومختلفة، ولا ريب في ذلك، لأن العراق هو الامتداد الطبيعي المتصل بجزيرة العرب واليمن.

إن الحديث عن القبائل العراقية في بلاد الرافدين متشعب وطويل، فقد اتسمت القبيلة العراقية بالصراع الذي أخذ أوجهاً عديدة حسب موازين القوى بين سلطة الدولة والقبائل ومدى ارتباطها بالمجتمع، **فالوجه الأكثر تواتراً**، هو الصراع المقنع والمستتر بين سيادة الدولة وبين زعماء القبائل، لذلك عمد الرئيس الراحل صدام حسين إلى إسناد صفة شيخ (أي رئيس قبيلة أو عشيرة) إلى كل الذين أراد أن يستعملهم ضد الشيوخ

الحقيقيين في القبائل العراقية وخاصة التي أبدت نوعاً من المعارضة تجاهه، وعملية تعميم صفة الشيخ بشكل انفلاتي ومتضخّم عملية مقصودة، فالإكثار من صفة الشيخ المسندة بدون أرضية شعبية لصاحبها يجعل من هؤلاء ومن الصفة نفسها وعاءً خاويا، تفقد بفعل الزمن مصداقيتها لدى الشعب العراقي، لقد بلغ عدد المشايخ المزعومة، ووجهاء القبائل الذين سماهم صدام حسين في تعيينهم شيخ قبيلة أكثر من (7300) شيخ، وهذا الإجراء أضعف من قبضة القبيلة على القانون وفقدانها المصداقية داخل المجتمع العراقي.

أما **الشكل الثاني** من التعامل مع القوة القبلية في العراق فتتمثل في طلب الرئيس الراحل صدام حسين، الدائم والملح لدى العراقيين بأن لا يقيدوا صفتهم القبلية في هويتهم الرسمية، وقد بدأ صدام حسين بنفسه عندما أزال نسبة (التكريتي) من هويته، وأصبح يلقب بصدام حسين فقط، كما عمد صدام خلال الفترة نفسها على توخي المرونة إزاء المسألة القبلية، والهدف واضح وهو استرجاع اللحمة بين الشعب (بقبائله)، وبين الدولة، فأعطى للقبيلة الواجهة الاجتماعية في إحياء المناسبات والإشراف على الاحتفالات مثل الزواج أو في أفراح الختان، لإبعادهم عن الدولة والقانون (العامري، 2014).

إن أغلب مشكلات المجتمع تكون نتيجة صراعات تنشأ بين الأفراد، مما ينتج عنها صراعات بين القبائل، ونتيجة لتلك الصراعات كان هناك العرف الذي يحل تلك النزاعات، منذ أن نشأت القبيلة في العراق، ومن هذا المنطلق فإن معظم الصراعات أوجد لها العرف الحلول الموفقة، مما يرضي جميع الأطراف، ولكن في بعض الأحيان يقف العرف عاجزاً في حسم كثير من النزاعات، مما يستوجب علينا اللجوء إلى القانون، أما في الوقت الحالي فقد اختلف الدور الذي يقوم به العرف عما كان عليه في السابق، حيث مازال العرف يلعب دوراً اجتماعياً مهماً في حياة الفرد داخل القبيلة في محافظة الأنبار، وكذلك الدور السياسي والقانوني الذي بدأ يطفو على السطح بشكل واضح خاصة في السنوات الأولى بعد غزو 2003م.

ويتمثل الدور الاجتماعي للقبيلة في حل النزاعات التي تنشأ نتيجة للخصومات حول الأرض أو قضايا أخرى تكون سبباً في حدوث جرائم القتل وغيرها من القضايا الاجتماعية الأخرى، وتعتبر قضايا القتل أو الدم من أخطر الجرائم داخل المجتمع، فقد يمتد تأثيرها إلى الأجيال القادمة، وقد تتسع حتى تشمل قبائل أخرى، وفي النهاية تخسر القبيلة مادياً ومعنوياً، لأن الحروب تستنزف كافة الموارد البشرية والمادية، وكثيراً ما يتبع جريمة القتل الأخذ بالثأر وهذا يؤدي إلى إزهاق أرواحاً واتلاف ممتلكات تسبب الفقر والدمار لكلا الطرفين (الشريف، 2009: 4).

رابعا: **التعصب القبلي وآثاره :**

إن العصبية القبلية أو العنصرية القبلية أو النزعة القَبلية هي مصطلحات تعنى الموالاة- بشكل تام للقبيلة أو العائلة ومناصرتها ظالمة أو مظلومة، وهي أحد أنواع السلوك الإنساني. ويري محمد عابد الجابري بأن العصبية ظاهرة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية معا، تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة ربطا مستمرا يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك االأفراد مصداقا للقول العربي – إن المصائب يجمعن المصابين- ومن مميزاتها أنها رابطة بين الفرد والمجموعة حيث يذوب الفرد في المجموعة عندما تتعرض لخطر وبالمثل تتقمص هي الفرد عندما يصاب بأذى أو يلحقه مكروه، هناك فناء أحدهما في الآخر. وللتعصب أشكال كثيرة ومتنوعة إلا أنها تحمل في داخلها نفس الصفات والانتماءات، حيث عانت البشرية منذ بداية التاريخ من أشكال كثيرة من العصبية، من أهمها:

- العصبية القبلية والعصبية الدينية، والعصبية القومية، الانحياز إلى ربطة النسب لأبناء القبيلة الواحدة- التفرقة العنصرية والنظرة الدونية للقبائل الأخرى.

- التفوق العرقي والنظر إلى عاداتهم وعقائدهم على أنها الأفضل.

- تحقيق مصالح أفراد القبيلة على المصلحة العامة للمجتمع على حساب الكفاءات والمؤهلات العلمية.

–معاداة القبائل الأخرى خاصة التي لا ترتبط معها بالنسب أو الجوار أو المصالح المشتركة .

–التعاون فيما بين أفراد القبيلة لمعادات قبيلة أخرى.

–مدح القبيلة أو أحد أفرادها بشكل مبالغ فيه حتى وأن كان بتزوير الحقائق التاريخية.

–الوقوف كحاجز كبير أمام النقد البناء وتسليط الضوء على عيوب الأخرين من غير أبناء القبيلة.

أما الآثار الناتجة عن التعصب القبلي: هناك الكثير من الآثار السيئة التي تحدث نتيجة التعصب القبلي سواء على الفرد أو على المجتمع، ومن تلك الآثار:

- وقوع الأشخاص في الحقد والغل والكراهية والتباغض نتيجة لتلك العصبية القبلية.

–إحداث التفكك والضعف في جسد المجتمع وبين أفراده والجماعات .

- الاهتمام بالعصبية القبلية والانشغال بها يجعل أفراد المجتمع يبعدون عن القضايا الكبرى الهامة. فتصبح التجمعات جميعها مشغولة بالتعصب ومهتمة بكيفية تحقيق النصر على بعضها البعض.

- انشغال الأفراد بالتعصب القبلي يجعلهم يتناسون وينشغلون عن التمدن وتطور المجتمع.

- تؤدي العصبية القبلية إلى زيادة الأطماع الدولية في المجتمع العراقي، لأنه يصبح مجتمعاً ضعيفاً، ولا يمتلك جسداً قوياً، مرصوص البنيان لصد الأطماع الخارجية.

- العصبية القبلية تجعل المسلم يخسر آخرته، لأنه يكسب السيئات عند الخوض في عرض أخيه الذي ينتمي إلى جماعة غير جماعته، سواء بالهمز أو اللمز أو السخرية والاستهزاء والغيبة والنميمة.

وتعتبر العادات والتقاليد الأعراف من وجهة نظر علماء الاجتماع نظم تلقائية سائدة في المجتمع، أي أن مجموعة القواعد والمعايير التي تنظم السلوك الإنساني في مواقف معينة تظهر تلقائيا ودون أن يخطط لها وتفرض نفسها عبر الزمن حتى تكتسب قوتها، وكلما كان المجتمع بسيطًا أحتوى على الكثير من النظم العفوية والتلقائية والعكس بالعكس.

كما أكد المفكر الاقتصادي" فبلن Veblen "صاحب نظرية (تكنولوجيا التحضر) أكد على أن تخلف المجتمعات يكمن في سيطرة الفئات الاجتماعية غير المتعلمة والمؤهلة من خلال سيطرة القبيلة أو العشيرة على تقليد الأمور وفرض هيمنتها على مختلف الدوائر والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية داخل الدولة.

خامسا: القبائل العراقية والحركة السياسية:

القبائل لها دورٌ بارز في صناعة التاريخ، لذا من يتأمل تاريخ العشائر في العراق يجد أنها لعبت دوراً أساسياً في الحركة السياسية على مدى التاريخ السياسي الحديث. كما مارست الكثير من العشائر لعبة المناورة، فهي ناهضت الحكم العثماني، مع اندلاع

الحرب العالمية الأولى، واختارت أن تقف مع القوى الأوروبية الوافدة إلى المنطقة، ثم حملت لواء مقاومة الاستعمار البريطاني لتعود إلى مهادنته بعد ذلك. وكان البريطانيون في مطلع القرن العشرين، وإبان الحرب العالمية الأولى، بحاجة إلى ضمان خطوط إمداداتهم الممتدة من الهند إلى الشرق الأوسط والتي كانت عرضة لهجمات قبائل المنتفك وكعب وبني لام والظوالم جنوب العراق، ومن هنا وجدوا أن من الأنسب منح تلك القبائل بعض الامتيازات مقابل قيامها بحماية خطوط القوافل، وهو ما اعتبرته القبائل أتاوات فرضتها على البريطانيين.

وأطلقت هذه القبائل وقبائل أخرى، وبقيادة المرجعيات الشيعية في النجف، في عام 1920 تمردا صار يعرف فيما بعد بثورة العشرين. ثم اهتدى الساسة البريطانيون إلى حل يضمن لهم سلامة خطوط الإمدادات كما يضمن للحكومات العراقية، التي خُطط لها أن تحل محلهم بعد نهاية الانتداب، سلاما دائما مع القبائل. من هنا فقد قرروا إشراك شيوخ ووجهاء القبائل في السلطة (الوردي، 1972: 72-73).

وعقب الانتداب البريطاني على العراق، شهدت علاقة العشائر بالحكومة، التي تأسست حالات مد وجزر، فقد قامت العشائر بعدة محاولات للتمرد على سلطة الحكومة المركزية في جنوب العراق، وخصوصاً في عهد الملك غازي، مما أرغم الحكومة آنذاك على استعمال القوة المسلحة للقضاء على هذه الحركات. ثم عمد الملك، وبمشورة بريطانية، إلى استمالة شيوخ العشائر بالمال والمناصب والجاه، ليجعل عددا كبيرا منهم نوابا في مجلس الأعيان (الطاهر، 1972: 56).

وكان مجلس الأعيان نسخة عراقية لمجلس اللوردات في بريطانيا. وكان القصد منه منح الإقطاعيين من شيوخ القبائل ووجهاء وشخصيات مدنية مهمة أخرى دورا في صناعة القرار. هذه الإستراتيجية نجحت تماما في إخماد حركات التمرد القبلية العربية في جنوب ووسط وغرب العراق، لكنها لم تفلح مع القبائل الكردية التي أدمنت الثورة على الحكومات المتعاقبة على مدى تاريخ العراق الحديث؛ لأنها لم تجد لنفسها دورا في

صناعة القرار في البلد ولم تشعر إلا مؤخرا بأنها مكون أساس ضمن النسيج الاجتماعي للبلد.

وعلى مدى القرن العشرين والألفية الثالثة، تذبذبت أدوار العشائر بين الولاء وبين التمرد على السلطة. وبعد أن أسقط التحالف الدولي نظام صدام حسين عام 2003، اعتمدت الإدارة الأمريكية التي قادت التحالف مرة أخرى على الإستراتيجية البريطانية، فعمدت إلى استمالة شيوخ القبائل لتضمن ولاءهم، وهكذا فقد انتخب غازي عجيل الياور، كبير مشايخ عشائر شمر وعنزة، كأول رئيس انتقالي لجمهورية العراق بعد 2003 (العزاوي، 2005: 46).

كما وجد زعماء ووجهاء قبليون من جنوب العراق طريقهم إلى مجلس النواب وحصل بعضهم على مناصب وزارية، إلا أن تسمية هؤلاء جاءت دائما تحت عنوان الأحزاب الدينية التي احتوتهم وإن كانوا قد اعتمدوا على أصوات قبائلهم في مناطق انتشارها إلى حد كبير في الحصول على مقاعدهم النيابية.

وللتصدي لتنظيم القاعدة الإرهابي، الذي وجد في مناطق غرب العراق حاضنة له، اعتمدت القيادة الأمريكية العسكرية في العراق على مبدأ استمالة العشائر. وعمدت إلى استحداث تنظيمي "صحوة العراق" و" أبناء العراق" من خلال تسليح عشائر الدليم في الرمادي ومدها بالمال بشكل شهري منتظم، ونجح تنظيما صحوة العراق وأبناء العراق العشائريان في القضاء على تنظيم القاعدة في مناطق الرمادي، وأصبح لزاما على الحكومة العراقية أن تضم عناصر التنظيمين إلى الجيش العراقي، الأمر الذي اصطدم بعقبات عدة (عساف، 2016: 66).

وحتى في كردستان العراق لعبت القبائل دوراً محوريًا. فقد تصدر زعماء القبائل الكردية حركات التمرد وساهموا في تحولها إلى ثورة وطنية تتبنى مشروع إقامة دولة كردية ضمن إقليم كردستان. واليوم يلحظ المرء دوراً كبيراً للقبائل الكردية في إقليم

كردستان الذي يتمتع بحكم ذاتي واسع الصلاحيات عن الحكومة المركزية في بغداد إلا أنه يرتبط نظريًا وقانونيًا بها، بالرغم من ظهور حركات جديدة مناهضة كحركة "غوران" أو التغيير.

الخاتمة:

1) القبيلة هي مجتمع حقيقي واقعي يملك ويستغل أرضا أو قطعة من الطبيعة، يدعي ملكيتها بالغزو أو الوراثة، وأن القبيلة مستعدة للدفاع عن أرضها ولو بالقوة، وهذا ما يميزها عن غيرها من المصطلحات الأخرى. و أن القبيلة بنية اجتماعية اجتماعية وليست نظام اجتماعي فقط. وأن أنساب العرب تنقسم إلى ست أقسام هي: الشعب، والقبيلة، والعمارة ، والبطن، والفخذ ، والفصيلة. وهناك بعض العناصر الأخرى التي تضاف إلى العناصر الستة السابقة وهي: البدنة أو الحمولة، والعشيرة. كما يتميز المجتمع القبلي بالانغلاق على نفسه.
2) كما يقصد بالبناء القبلي: المجتمع القائم على القوانين والأعراف التي تضمن للقبيلة بقاؤها، ولذلك نشأة- بينهم العصبية. كما حدثت بعض التحولات في البناء الطبقي؛ نتيجة التغير الاجتماعي، وسرعة التطورات التكنولوجية والعلمية في العالم، وانفتاح المجتمعات القبلية على تلك التغيرات والتطورات.
3) أن العصبية على طبقات، وتتناسب طبقات العصبية وفقا للجماعة التي ينتسب إليها الفرد. والعصبية القبلية أو العنصرية القبلية أو النزعة القَبلية تشير إلى حالة الموالاة والانتماء القبلي.
4) يتمثل الدور الاجتماعي للقبيلة في حل النزاعات التي تنشأ نتيجة للخصومات حول الأرض أو قضايا أخرى تكون سبباً في حدوث جرائم القتل وغيرها من القضايا الاجتماعية الأخرى.

5) لعبت القبيلة دوراً أساسياً في الحركة السياسية على مدى التاريخ السياسي الحديث في العراق. وعلى مدى القرن العشرين والألفية الثالثة، تذبذبت أدوار العشائر بين الولاء وبين التمرد على السلطة العراقية؛ سعيا نحو الاندماج الاجتماعي والسياسي، والحصول على فرص في المجالس النيابية.

قائمة المـراجـع:

1. ابن منظور، (1999): **لسان العرب**، الجزء الثالث، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
2. البغيلي، محمد محمود (2011) : **دور القبيلة في الحياة السياسية بدولة الكويت**، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشرق الأوسط.
3. تولرجان، فيليب لابورت (2004): **بيار فارنييه, أثتولوجيا أنثروبولوجيا**، ترجمة: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،
4. الجابري، محمد عابد (1990) : العقل **السياسي العربي "محدداته وتجلياته"**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
5. الجابري، محمد عابد (1994) : **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة "معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، ط (6)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
6. الجابري، محمد عابد (2005) : **إشكاليات الفكر العربي المعاصر**، ط (5)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.
7. داود، هشام (2016) : **القبائل العراقية في أرض الجهاد**، دورية عمران للعلوم الاجتماعية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد 15، مجلد (4)، قطر، 2016، ص 100.
8. الدويهيس، عيد (1999): **لا للتعصب العرقي، الصيد للطباعة والنشر**، الكويت، الكويت.

9. الرائد مسعود جبران (1992): **معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين**، لبنان.
10. سما، سما (2019) التعصب القبلي،(براير 2019)، منشور على www.almrsal.com/post
11. الشريف، مهدي عطية خميس (2009): **دور العرف في حل النزاعات القبلية**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا.
12. الشيخ، محمد (2020): **دور القبيلة في العملية السياسية في اليمن وموريتانيا والجزائر 1991- 2007: دراسة مقارنة**، رسالة ماجستير، كلية الحقوق، جامعة وهران، 2010م.
13. الطاهر، عبد الجليل (1972): **العشائر العراقية**، مكتبة المثني للنشر والتوزيع، بغداد.
14. الطيبي، محمد (2002): **العرب: الأصول والهوية**، دار الغرب للنشر والتوزيع، المغرب .
15. العامري، العروسي(2014): **القبيلة حجر الزاوية لفهم واقع المجتمع العربي**، مجلة التسامح، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في سلطنة عمان، يناير 2014،
16. عجاج، محمد (2015): **موسوعة السنن والأعراف لدى قبائل الجزيرة العربية**، الدار العربية للموسوعات، لبنان.
17. العزاوي، عباس (2005): **عشائر العراق**، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان.
18. عساف، عبد الله (2016): الإ**علام الجديد وتشكيل الاتجاهات نحو قضايا الإرهاب**، المجلة العربية للإعلام والاتصال، الجمعية السعودية للإعلام والاتصال، العدد (16).
19. الفوال، صلاح مصطفى (1974): **علم الاجتماع البدوي**، سلسلة كتب علم الاجتماع والتنمية، الكتاب الأول، دار النهضة العربية، القاهرة،

20. قنوص، صبحي محم(1994): **دراسات حضرية مدخل نظري**، الدار الدولية لنشر والتوزيع، القاهرة.
21. لبيض، سالم (2000): **من أجل مقاربة سوسيولوجية لظاهرة القبيلة في المغرب العربي**، مجلة المستقبل العربي، عدد26، نوفمبر 2000.
22. محجوب، محمد عبده (1985): **طرق البحث الأنثروبولوجي النسق القرابي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
23. مغنية، حسن (1982): **مجالس العرب**، مؤسسة عز الدين للنشر والتوزيع، بيروت.
24. الموسوعة الحرة (2020): **عصبية قبلية**، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، https://ar.wikipedia.org.
25. الوردي، علي (1972): **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**، دار الوراق للنشر، بغداد.
26. وصفي عاطف (1981): **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، ط3، دار النهضة العربية، بيروت.
27. Dawod, Hosham (2004) : ***Tribus et pouvoirs en IRAK in: Tribus et pouvoirs en terre d'islam ouvrage collectif***, Armand colin, Paris 2004, p 240,241,243.
28. Dawod, Hosham (2004): ***Tribus et pouvoirs en IRAK in: Tribus et pouvoirs en terre d'islam ouvrage collectif***, Armand colin, Paris.
29. godelier, Maurice (2004) : ***A propos des concepts de tribu, ethnie et état (formes et fonctions du pouvoir politique) in***: Hosam Dawod et autres ouvrage collectif: Tribu et pouvoirs en terre d'islam Arm and colin, Paris.
30. Hitti, Philip K., (1970) : H***istory of the Arabs from the Earliest Times to the Present,*** London: Macmillan; New York: St Martin's Press, 1970.

31. Keohane, Alan (1994) : ***Bedouin: Nomads of the Desert***, Hong Kong: Colorcraft limited.
32. www.altasamoh.net/Article.asp